

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرِّفْقُ مِفْتَاحُ الْقُلُوبِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَرَ بِالرِّفْقِ وَأَثَابَ عَلَيْهِ، وَأَوْجِبَهُ عَلَى عِبَادِهِ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، جَعَلَ الرِّفْقَ سَبَبًا لِتَأْلِيفِ الْقُلُوبِ، وَاللُّطْفَ سَبِيلًا لِنَيْلِ التَّأْلِفِ الْمَطْلُوبِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، بَعَثَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَكَانَ قُدْوَةً لِلرَّاحِمِينَ، وَمَثَلًا لِلْعَاطِفِينَ، ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَعَلَى أَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَاتَّقُوا اللَّهَ - عِبَادَ اللَّهِ - ، وَأَحْرِصُوا عَلَى رُشْدِهِ وَهُدَاهُ، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١)، وَاعْلَمُوا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - أَنَّ الرِّفْقَ خُلِقَ مِنْ أَخْلَاقِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمَةِ، وَرُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْحَيَاةِ الْهَيِّئَةِ الْكَرِيمَةِ، حُنَّتْ عَلَيْهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَجَلَّى وَاضِحًا فِي سِيرَةِ رَسُولِكُمُ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٢)، إِنَّ التَّيْسِيرَ وَالرِّفْقَ فِي الْإِسْلَامِ سِمَةٌ عَظِيمَةٌ ظَاهِرَةٌ، تَتَجَلَّى فِي عَقَائِدِهِ وَعِبَادَاتِهِ، وَأَخْلَاقِهِ وَمَعَامَلَاتِهِ، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ مَا خَيْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِّنَ الدُّلْجَةِ))، وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغَلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تَبْغِضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُنْبِتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى))، وَالْمُنْبِتُ هُوَ الْمُنْقَطِعُ فِي سَفَرِهِ قَبْلَ وُصُولِهِ. وَالرِّفْقُ صِفَةٌ عَظِيمَةٌ جَامِعَةٌ لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، ضَابِطَةٌ لِحُسْنِ السُّلُوكِ، حَاكِمَةٌ لِلتَّصَرُّفَاتِ، صِفَةٌ طَالَمَا تَحَدَّثَ

(١) سورة النساء / ١ .

(٢) سورة التوبة / ١٢٨ .

النَّاسُ عَنْهَا، وَاسْتَحْسَنَتْهَا نُفُوسُهُمْ، وَامْتَدَحَتْهَا مُنْتَدِيَاتُهُمْ، إِنَّهُ مِنْ أَشْهَرِ ثَمَارِ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَمَنْ أَظْهَرَ مَظَاهِرِ جَمِيلِ الْمُعَامَلَةِ، فَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ))، إِنَّهُ تَحَكَّمٌ فِي هَوَى النَّفْسِ وَرَغَبَاتِهَا، وَحَمَلٌ لَهَا عَلَى الصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ وَالتَّجَمُّلِ، وَكَفٌّ لَهَا عَنِ الْعُنْفِ وَالتَّعَجُّلِ، إِنَّهُ لَيْنُ الْجَانِبِ وَلَطَافَةُ الْفِعْلِ، وَأَخْذٌ لِلْأُمُورِ بِأَحْسَنِ وُجُوهِهَا وَأَيْسَرَ مَسَالِكِهَا، وَهُوَ رَأْسُ الْحِكْمَةِ وَدَلِيلُ كَمَالِ الْعَقْلِ وَقُوَّةِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى ضَبْطِ التَّصَرُّفَاتِ وَالْإِرَادَاتِ وَاعْتِدَالِ النَّظَرِ، وَمَظْهَرٌ عَجِيبٌ مِنْ مَظَاهِرِ الرُّشْدِ، بَلْ هُوَ ثَمَرَةٌ كُبْرَى مِنْ ثَمَارِ التَّدْبِينِ الصَّحِيحِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ:

إِنَّ أَوْلَى الْخَلْقِ بِرِفْقِ الْمَرْءِ وَأُطْفِهِ، وَأَجْدَرُهُمْ بِرَحْمَتِهِ وَعَطْفِهِ، نَفْسُهُ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ، فَهِيَ نِعْمَةٌ وَأَمَانَةٌ لَدَيْهِ، فَلَا يَصِحُّ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ، وَيَجْرَّ لِلشَّقَاءِ بَدَنَهُ، وَيُهْدِرَ فِي الْهَبَاءِ قُدْرَاتِهِ، إِنَّ ظُلْمَ النَّفْسِ مَرْتَعَةٌ وَخِيمٌ، وَالْعَذَابُ عَلَيْهِ شَدِيدٌ عَظِيمٌ، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغَالِبِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاوِيَّتُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١)، أَلَا وَإِنَّ أَشَدَّ صُورِ ظُلْمِ النَّفْسِ إِهْمَالُ إِصْلَاحِهَا وَعَدَمُ تَرْكِيبِهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ يُورِثُ خُسْرَانًا دَائِمًا فِي مَالِهَا وَأَخْرَاقِهَا، أُولَئِكَ أَسْوَأُ الْبَرِيَّةِ مِثَالًا، وَأَكْثَرُهُمْ جَهْلًا وَضَلَالًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (٢)، بَلْ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُؤَكِّدُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَيُبَيِّنُ فِي صَادِقِ قَوْلِهِ وَخَطَابِهِ، أَنَّهُ مَا مِنْ ضَرَرٍ يَقَعُ بِالنَّاسِ، وَلَا يُصِيبُهُمْ مِنْ سُوءٍ وَبَأْسٍ، إِلَّا بِمَا يَقَعُ مِنْ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ بِانْحِرَافِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، وَبَعْدِهِمْ بِهَا عَنِ مَسَلِكِ الرَّحْمَةِ وَالرَّفْقِ، قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣)، وَمَنْ ظَلَمَ النَّفْسَ تَعْرِيبُهَا لِلْمَوَاقِفِ الْمُهَيِّنَةِ، الَّتِي تُورِثُهَا ذَمُّ الْآخَرِينَ،

(١) سورة النساء / ٩٧ .

(٢) سورة الأعراف / ١٧٧ .

(٣) سورة يونس / ٤٤ .

وَتَجَرُّهَا إِلَى لَمَزِ الشَّامَتَيْنِ، فَهِيَ الْإِسْلَامُ عَنْ كُلِّ مَظْهَرٍ يُورِثُ السُّخْرِيَّةَ، وَأَمْرًا بِالنِّظَافَةِ وَالطَّهَارَةِ وَالتَّرَكِّيَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْنَىءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(١)، وَعَنْ جَابِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا وَسِخَةً نِيَابَهُ، فَقَالَ: ((أَمَا وَجَدَ هَذَا شَيْئًا يُنْقِي بِهِ ثَوْبَهُ؟))، وَرَأَى رَجُلًا شَعَثَ الرَّأْسِ، فَقَالَ: ((أَمَا وَجَدَ هَذَا شَيْئًا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ؟)) وَفِي الْأَثَرِ: (إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى إِخْوَانِهِ فَلْيَهَيِّئْ نَفْسَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ)، وَالْمُنْتَمَلُّ لِتَوْجِيهَاتِ الْإِسْلَامِ يَجِدُ أَمْرًا بِالرَّفْقِ بِالنَّفْسِ فِي كُلِّ شُؤْنِهَا، فِي مَأْكَلِهَا وَمَشْرَبِهَا، وَمَنَامِهَا وَجُهْدِهَا، وَمَا أَرُوَعَ تَرْبِيَةَ النَّبِيِّ ﷺ لِلنَّفَرِ الَّذِينَ حَمَلُوا أَنْفُسَهُمْ فَوْقَ طَاقَتِهَا، وَكَلَفُوهَا مَا يَشُقُّ عَلَى قُدْرَاتِهَا، إِذْ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَا أَنَا فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: وَأَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: ((أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمُ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)).

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ:

إِنَّ الرَّفْقَ فِي الْمَحِيطِ الْأُسْرِيِّ، سُلُوكٌ وَمَنْهَجٌ نَبَوِيٌّ، وَأَمْرٌ وَتَوْجِيهٌ قُرْآنِيٌّ، وَمِنْ أَرْوَعِ صُورٍ رَفِقَ رَبُّ الْأُسْرَةِ بِأُسْرَتِهِ، أَنْ يَحْرِصَ عَلَى مَا يُنْجِي كُلَّ فَرْدٍ فِيهَا فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، فَرَبُّ الْأُسْرَةِ الرَّفِيقُ هُوَ مَنْ يَحْرِصُ عَلَى اسْتِقَامَتِهِمُ الدِّينِيَّةِ، وَصِحَّتِهِمُ النَّفْسِيَّةِ، وَسَلَامَتِهِمُ الْجَسْمِيَّةِ، بِأَمْرِهِمُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُبْعِدُهُمْ عَنِ كُلِّ مُرْعَبٍ مَخُوفٍ، وَيُطْعِمُهُمْ مِنَ الْحَلَالِ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَحْتَنُطُهُمْ عَلَى التَّخْطِيطِ السَّلِيمِ لِمُسْتَقْبَلِ مُشْرِقٍ وَدَكْرٍ حَسَنٍ، فِي جَوْءِ تَسْوُدِهِ مَشَاعِرِ الرَّفْقِ وَالْعَطْفِ وَالْحَنَانِ، وَيَمْتَلِئُ بِالْهُدُوءِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالِاطْمِئْنَانِ، فَقَدْ ذَكَرْنَا لَنَا الْحَقُّ تَعَالَى صُورَةَ تَجَلَّى فِيهَا الرَّفْقُ الْحَقُّ، وَظَهَرَ فِيهَا الْحُبُّ الْخَالِصُ الصِّدْقُ، إِنَّهُ مَوْقِفُ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَ ابْنِهِ الَّذِي كَانَ يُلَاطِفُهُ بِأَعْدَابِ الْكَلَامِ، وَيَدْعُوهُ إِلَى الْحَقِّ وَالْإِسْلَامِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ

أَتَيْنَ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ، وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَدْنَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ، وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَبْتُىَ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ، قَالَ سَاوِيَ إِلَى جِبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (١)، إِنَّهُ مَوْقِفٌ تَجَلَّى فِيهِ الْعَطْفُ وَالرَّفْقُ، فَأَيْنَ هَذَا مِمَّنْ يَدْعُونَ الرَّفْقَ وَالْحَنَانَ، وَيَحْمِلُونَ أَسْرَهُمْ عَلَى الْمُخَالَفَةِ وَالْعِصْيَانِ، اللَّهُ الْوَاحِدِ الدِّيَانِ؟ إِنَّ إِشَاعَةَ أَجْوَاءِ الرَّفْقِ فِي الْحَيَاةِ الْأُسْرِيَّةِ، دَلِيلٌ لَهَا عَلَى الْفَضْلِ وَالْخَيْرِيَّةِ، فَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ الرَّفْقَ، وَمَا كَانَ أَهْلُ بَيْتِ يُحْرَمُونَ الرَّفْقَ إِلَّا حُرِمُوا الْخَيْرَ كُلَّهُ))، وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((يَا عَائِشَةُ، ارْفِقِي؛ فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا دَلَّهُمْ عَلَى الرَّفْقِ))، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَالْأُسْوَةَ الْأُولَى فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ رِقَّةً وَحُبًّا وَعَطْفًا وَرِفْقًا، هَذَا وَإِنَّ أَوْلَى أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ بِالرَّفْقِ وَالْحَنَانِ، وَأَجْدَرُهُمْ بِالتَّنَطُّفِ وَالْإِحْسَانِ، الْأَبْوَانِ الْوَالِدَانِ، فَإِنَّ حَقَّهُمَا عَظِيمٌ، وَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُمَا الْاحْتِرَامَ وَالتَّكْرِيمَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آيٌ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢).

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ:

لَيْسَ لِلرَّفْقِ حُدُودٌ تَفِيدُهُ، وَلَا مَجَالٌ يَحْصُرُهُ، بَلْ هُوَ مَطْلُوبٌ فِي كُلِّ الشُّؤُونِ وَالْأَحْوَالِ، مَطْلُوبٌ مِنَ الْمُعَلِّمِ لِطَلْبَتِهِ، فَالرَّفْقُ مُعِينٌ عَلَى تَقْبُلِ الْعِلْمِ وَاسْتِعَابِهِ، فَهَذَا هُوَ الْمُعَلِّمُ الْأَوَّلُ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ يُعَلِّمُنَا الرَّفْقَ حِينَ بَالَ الْأَعْرَابِيُّ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمْ النَّاسُ بِهِ، قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ: ((لَا تُزْرِمُوهُ - أَيِ لَا تَقْطَعُوا عَلَيْهِ -، دَعُوهُ، وَأَهْرِيْقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنْبًا مِنْ مَاءٍ؛ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ))، وَفِي سِيرَتِهِ

(١) سورة هود / ٤٠-٤٣ .

(٢) سورة الإسراء / ٢٣-٢٤ .

العطرة ﷺ أَنَّ رَجُلًا عَطَسَ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ لَهُ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ الْحَكَمُ بْنُ مُعَاوِيَةَ السُّلَمِيِّ: رَحِمَكَ اللَّهُ، قَالَ الْحَكَمُ: فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَأَتَكَلُّ أُمِيَاءَ، مَا شَأْنَكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟! فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَادِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونِي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: ((إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ))، وَمِنَ الرَّفْقِ الْمُهْمِّ -عِبَادَ اللَّهِ - رَفْقُ الْوَلَاةِ وَالْمَسْئُولِينَ بِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَالشَّفَقَةُ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ حِكْمَةٌ رَفِيعَةٌ مِنَ السِّيَاسَةِ النَّاجِحَةِ، وَسَبَبٌ لِلإِمْتِنَالِ وَالطَّاعَةِ؛ فَإِنَّ الْعُنْفَ يُورِثُ الْكِرَاهِيَةَ وَالتَّدْمُرَ، وَلِأَجْلِ هَذَا أَمَرَ الْمُصْطَفَى ﷺ كُلَّ مَنْ وَلِيَ أَمْرًا أَنْ يَرْفِقَ بِمَنْ مَعَهُ، وَحَذَرَهُ مِنَ الْعُنْفِ وَالْغِلْظَةِ وَالتَّشْدِيدِ عَلَى مَنْ تَحْتَ يَدِهِ، وَكَانَ يَبْتَهِلُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَيَقُولُ: ((اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرٍ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرٍ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ))، وَمِمَّنْ تَتَطَلَّبُ حَالَتُهُمُ الرَّفْقَ الْمَرْضَى وَذَوُو الْعَاهَاتِ وَالِاحْتِيَاجَاتِ الْخَاصَّةِ، فَهُمْ يَعِيشُونَ فِي الْحَيَاةِ بِوَسَائِلِ مَنْقُوصَةٍ، تَعُوقُ مَسِيرَهُمْ، وَتَحُولُ دُونَ تَحْقِيقِ مَقَاصِدِهِمْ، وَرُبَّمَا ضَاقَتْ صُدُورُهُمْ، وَأُحْرِجَتْ نَفُوسُهُمْ، فَيَجِبُ التَّرْفُقُ بِهِمْ، وَالْحَذَرُ مِنَ الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِمْ، أَوْ الْإِسْتِهَانَةِ بِمُتَطَلِّبَاتِ رَاحَتِهِمْ، فَإِنَّ الْقَسْوَةَ مَعَهُمْ جُرْمٌ عَظِيمٌ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ (١)، أَمَّا الصَّغَارُ وَالْأَطْفَالُ فَإِنَّهُمْ مُخْتَاوُونَ إِلَى عِنَايَةِ خَاصَّةٍ، وَرَفْقٍ دَائِمٍ، فَلَيْسَ مِنْهَا مَنْ لَمْ يُوقَّرْ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمَ صَغِيرَنَا، وَالنُّفُوسُ ذَاتُ الْفِطْرِ السَّلِيمَةِ تَجِدُهَا رَفِيقَةً بِالصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ، وَالْمَرِيضَ حَتَّى يُشْفَى، وَالْغَائِبَ حَتَّى يَحْضُرَ، وَقَدْ بَلَغَ تَوْجِيهُهُ الْإِسْلَامَ فِي الرَّفْقِ حَتَّى نَالَ الْحَيَوَانَ الْأَعْجَمَ الْبَهِيمَ، حَتَّى عِنْدَ قَتْلِهِ أَوْ ذَبْحِهِ، فَفِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((إِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَلِيَجِدَّ أَحَدَكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلِيُرِيحَ ذَبِيحَتَهُ)).

فَاتَّقُوا اللَّهَ - عِبَادَ اللَّهِ - ، وَارْفُقُوا بِأَهْلِيكُمْ؛ وَخَدَمِكُمْ وَعَمَالِكُمْ، وَلَا تَكْلِفُوهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَأَحْسِنُوا مُخَاطَبَتَهُمْ، وَأَعْطُوهُمْ أَجُورَهُمْ فِي مَوَاعِيدِهَا طَيِّبَةً بِهَا نَفُوسُكُمْ، وَيَا أَيُّهَا الْمُعَلِّمُونَ، وَآيُّهَا الْمَسْئُولُونَ: ارفُقوا وترَفَّقُوا؛ تَنَالُوا الْخَيْرَ فِي دُنْيَاكُمْ وَأَخْرَجْتُمْ.

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ يَغْفِرْ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَادْعُوهُ سَتَجِبْ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الْكَرِيمُ.

*** **

الْحَمْدُ لِلَّهِ اللَّطِيفِ الرَّحِيمِ، الْبَرِّ الْكَرِيمِ، لَهُ الْحَمْدُ عَلَى خَيْرِهِ الْعَمِيمِ، وَالنَّشَاءُ عَلَى عَفْوِهِ الْعَظِيمِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.
أَمَّا بَعْدُ، فَيَا عِبَادَ اللَّهِ:

إِنَّ لِلرَّفْقِ فَوَائِدَ كَثِيرَةً، وَعَوَائِدَ عَظِيمَةً، فَالرَّفْقُ مَعَ النَّاسِ وَاللِّينُ مَعَهُمُ وَالْتِيْسِيرُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ، بَلْ مِنْ أَعْظَمِ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي يَسُودُ بِهَا الْعُظَمَاءُ مِنَ الْبَشَرِ، إِنَّهُ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيُعْطِي عَلَيْهَا مِنَ الْأَجْرِ وَالنَّوَابِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى غَيْرِهَا، قَالَ ﷺ: ((مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ))، وَأَمَّا مَنْ خَلَّتْ تَصَرُّفَاتُهُ وَأَقْوَالُهُ مِنَ اللَّيْنِ وَالرَّفْقِ، وَاتَّصَفَ بِالْغُلْظَةِ وَالْعُنْفِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ تَبَعْدُ عَنْهُ وَتَنَفَّرُ مِنْهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيمَا رَحِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١)، وَالرَّفْقُ يُدُلُّ عَلَى الْفَهْمِ وَالْفِقْهِ، وَيَنْبُغُ عَنِ الْإِيمَانِ وَالسَّمَاخَةِ وَالْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَمِنْ خَلْقِهِ، وَالْقَوْلُ اللَّيِّنُ وَالتَّصَرُّفُ الرَّفِيقُ أَوْقَعُ فِي النُّفُوسِ، وَأَبْلَغُ فِي تَحْقِيقِ الْمَطْلُوبِ، وَادْعَى إِلَى الْإِجَابَةِ وَالْقَبُولِ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ وَعَلَا لِمُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ حِينَ بَعَثَهُمَا إِلَى فِرْعَوْنَ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّنَا عَلَهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٢)، وَأَوْصَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبَادَهُ

(١) سورة آل عمران / ١٥٩ .

(٢) سورة طه / ٤٤ .

المؤمنين بقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(١)، والرفق يُليّن القلوب، ويقشع عن النفس ظلمات الكروب، جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو قسوة قلبه فقال له: ((أحب أن يلين قلبك؟! إرحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك؛ يلين قلبك)).

أيها المسلمون:

الرفق ليس حناناً لا عقل معه، وليس شفقة تتكرر للعدل والنظام، كلا، بل هو خلق يرعى الحقوق كلها، وقد يأخذ الرفق صورة الحزم حين يؤخذ الصغير مثلاً إلى المدرسة من أجل التربية وطلب العلم، فيلزم بذلك إلزاماً، ويكف عن اللب كفاً، ولو ترك وما أراد لم يحسن صنعا، ولم يبين مجداً، والطبيب قد يبتز عضو المريض، لكنه ما فعل ذلك إلا رحمة به لأجل علاجه، فضلاً عن العقوبات، والأخذ على أيدي السُّهاء، وأطهرهم على الحق أطراً، فهي الرحمة في مآلاتها، والحياة في كمالاتها، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢)، إن القسوة التي استكرها الإسلام لا ترتبط بتحقيق عدل، ولا بمسالك إنصاف، ولكنها شدة وانحراف في دائرة مجردة وهوى مضل، لقد جاء الإسلام بالرحمة العامة، لا يستثنى منها إنسان ولا دابة ولا طير، بيد أن هناك من الناس والدواب من يكون مصدر خطر ومثار رعب؛ فيكون من رعاية مصلحة الجماعة أن يحبس شره ويكف ضرره، بل إن الشدة معه رفق به وبغيره.

ألا فاتقوا الله - عباد الله - ، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر والرفق، وتواصوا

بالمرحمة.

هذا وصلوا وسلموا على إمام المرسلين، وقائد الغر المحجلين، فقد أمركم الله تعالى بالصلاة والسلام عليه في محكم كتابه حيث قال عز قائلًا عليماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٣).

(١) سورة البقرة / ٨٣ .

(٢) سورة البقرة / ١٧٩ .

(٣) سورة الأحزاب / ٥٦ .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ وَسَلَّمْتَ عَلَى سَيِّدِنَا
إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ
عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنِ
خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ، وَعَنْ أَرْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَعَنِ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَعَنَّا مَعَهُمْ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ جَمْعَنَا هَذَا جَمْعًا مَرْحُومًا، وَاجْعَلْ تَفَرُّقَنَا مِنْ بَعْدِهِ تَفَرُّقًا مَعْصُومًا، وَلَا تَدَعْ فِينَا
وَلَا مَعَنَا شَقِيًّا وَلَا مَحْرُومًا. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى وَالعِفَافَ وَالعَنَى.
اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَرْزُقَ كَلًّا مِنَّا لِسَانًا صَادِقًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا خَاشِعًا مُنِيبًا، وَعَمَلًا صَالِحًا
زَاكِيًا، وَعِلْمًا نَافِعًا رَافِعًا، وَإِيمَانًا رَاسِخًا ثَابِتًا، وَيَقِينًا صَادِقًا خَالِصًا، وَرِزْقًا حَلَالًا طَيِّبًا وَاسِعًا،
يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَوَحِّدِ اللَّهُمَّ صُفُوفَهُمْ، وَأَجْمِعْ كَلِمَتَهُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَاكْسِرِ
شَوْكَةَ الظَّالِمِينَ، وَاكْتُبِ السَّلَامَ وَالْأَمْنَ لِعِبَادِكَ أَجْمَعِينَ.

اللَّهُمَّ رَبَّنَا احْفَظْ أَوْطَانَنَا وَأَعِزِّ سُلْطَانَنَا وَأَيِّدْهُ بِالْحَقِّ وَأَيِّدْ بِهِ الْحَقَّ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.
اللَّهُمَّ رَبَّنَا اسْقِنَا مِنْ فَيْضِكَ الْمِدْرَارِ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الذَّاكِرِينَ لَكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، الْمُسْتَغْفِرِينَ
لَكَ بِالْعَشِيِّ وَالْأَسْحَارِ.

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَأَخْرِجْ لَنَا مِنْ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ، وَبَارِكْ لَنَا فِي ثَمَارِنَا
وَزُرُوعِنَا وَكُلِّ أَرْزَاقِنَا يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.
رَبَّنَا لَا تَرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ.
رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ.
اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ، إِنَّكَ سَمِيعٌ
قَرِيبٌ مُجِيبُ الدُّعَاءِ.

عِبَادَ اللَّهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ
يَعْظُمُكُمْ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.